سُورَةُ سَبَإٍ

النزول: مكية.

المقاصد:

١ ـ تقرير الإيمان بالبعث، وبيان الحكمة منه.

٢ ـ تقرير رسالة النبي ﷺ، وعالميتها ومقاصدها.

٣ ـ رَدُّ كثير من المفاهيم الباطلة، والتصورات المادية التي رسختها الجاهلية.

٤ ـ بيان عاقبة المستضعفين والمستكبرين، وتخاصُمُهم يوم الدين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ
(١) يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ
ٱلْغَفُورُ (٢) وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ
عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى
كِتَٰبٍ مُّبِينٍ (٣) لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ
كَرِيمٌ (٤) وَٱلَّذِينَ سَعَوْا فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ (٥) وَيَرَى
ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ
(٦) وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ
جَدِيدٍ (٧) أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ
ٱلْبَعِيدِ (٨) أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ
بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ (٩)﴾

التفسير:

١ ـ يُثني الله سبحانه على نفسه، فهو المحمودُ قبل أن يَحْمَدَه الحامدون، المتفضِّلُ على عبادِه في الدنيا والآخرة، له ملك السموات والأرض، فالجميع ملكه وعبيده، وتحت قهره وتَصَرُّفه؛ وله الحمد في الآخرة على كمال عدله، وتمام رحمته؛ إذ يَفْصِلُ بين العباد، ويقضي بينهم، فيثيب

المحسنين، ويعاقب المسيئين، ويُنْصِفُ المظلومين، ويقتصُّ من المجرمين، وهو الحكيم في ملكه وتدبيره، الخبير ببواطن الأمور.

٢ ـ يعلم ما يدخل في الأرض من كائناتٍ، وما يخرج منها من كنوزٍ ونباتٍ، وما ينزل من السماء من الأمطار والأرزاق والمقادير والبركات والرَّحمات، ولا نازلةٌ ولا صاعدةٌ إلا وقد أحصاها ربُّنا عَدّاً، وأحاط بها قدرةً وعلماً، وهو الرحيم نَشَرَ بساطَ رحمتِه، وبَثَّ آثارَها، الغفورُ أمطرَ سحائبَ مغفرتِه وفَتَحَ أبوابَها.

٣ ـ وقال الكفار مُنْكرين للبعث، مستبعدين له، غافلين عن شواهده: لا تأتينا الساعة بأيِّ حال من الأحوال. أجبهم ـ يا محمد ـ مؤكِّداً لهم وقوعها بالقسم، بلى وربي الذي أحسن إليَّ وتَعَهَّدني لَتأتينَّكم؛ ليجازِيَكم، ويفصل بيني وبينكم، عالم الغيب يعلم كلَّ ما غاب واستتر. لا يغيب عن علمه شيء مهما صَغُر ولَطُف، فما من صغيرةٍ ولا كبيرةٍ إلا وهي مُسَجَّلةٌ في اللوح المحفوظ الذي حَوَى كلَّ ما كان، وما يكون، وما سيكون، ومن ثَمَّ فهو قادرٌ على بَعْثِكم وحسابكم.

٤ ـ ليفصِلَ بين العباد، ويقضيَ فيهم، فيثيب المؤمنين الذين عملوا الصالحات، بالمغفرة والرزق الكريم.

٥ ـ والذين سعوا في آياته صَدّاً عنها، وقدحاً فيها، وتعجيزاً لِـمَنْ جاء بها، وتثبيطاً لِـمَنْ آمن بها، ودعا إليها، هؤلاء البعداء لهم عذاب موجع لأبدانهم.

٦ ـ ويرى الذين مَنَّ الله عليهم بالعلم النافع والمعرفة الواعية ما أنزل الله عليك هو الحق، ويهدي إلى طريقِ العزيز الذي يعزُّ أولياءه، الحميد المستحق للحمد والثناء فهو طريق العزة، وطريق المجد والثناء.

٧ ـ وقال الذين كفروا ساخرين: هل نَدُلُّكم على رجلٍ يَدَّعي أنكم إذا تَقَطَّعَتْ أشلاؤكم، وتمزَّقَتْ أوصالكم، وصِرْتم تراباً، تُخْلَقُون خَلْقاً جديداً؟ وهذا منهم إمعان في الاستبعاد، ومبالغة في التشكيك.

٨ ـ أفترى على الله هذا القول، أم أصابه ضَرْبٌ من الجنون؟ بل الكافرون بالآخرة مُوغِلُون في الضلال، في تجاهلهم للآيات، وتَنَكُّرهم للنبيِّ ﷺ.

٩ ـ يَرُدُّ الله عليهم مُنْكراً: أفلم ينظروا نَظَرَ اعتبار لما حولهم من آياتٍ بيناتٍ، وما سبقهم من عِبَرٍ وعظات. إن نشأ نخسف بهم الأرض، فتقبُرهم، أو نسقط عليهم قطعاً من السماء فتُبيدهم. إنَّ فيما سبق ذِكْرُه والإشارة إليه لآيةً لكل عبد مُقْبِلٍ على مولاه، راجعٍ إليه في كل أحواله.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ القادر على إيجاد هذه النعم في الدنيا قادرٌ على إيجادها في الآخرة، فالنِّعَمُ العاجلة دليلٌ على الآجلة، ونعيم الدنيا برهانٌ على الآخرة.

٢ ـ عِلْمُه تعالى بما كان وما يكون وما سيكون، فهو المحيط بكل شيء علماً.

٣ ـ تأكيد الرد على مُنْكِري البعث بالقسم واللام ونون التوكيد؛ تعظيماً لهذا اليوم، وتقريراً له على أبلغ وجه؛ أمرٌ يقينيٌّ تقتضيه الحكمةُ الإلهية؛ لإقامة موازين العدل والإنصاف، ونَشْرِ بساط الرحمةِ وظلالها.

٤ ـ تقديم العذاب على الضلال؛ لأنهم في شقاء دائم وعذاب حالٍّ وآجِل، كذلك لتقديم ما يسوءهم ويرهبهم.

٥ ـ بيان موقف أعداء الإسلام من الحق، وأساليبهم في الصدِّ عنه، وتشكيكهم في قدرة الله تعالى، وتثبيطهم للمؤمنين، وبَثِّ روح الهزيمة فيهم.

٦ ـ التعبير بـ ﴿وَيَرَى﴾ لإفادة تجدُّد هذه الرؤية ودوامها، وهم يرتقون من رتبة إلى رتبة ومن درجة إلى درجة في سلَّم المعرفة واليقين. قال الشيخ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وهذه مَنْقَبَةٌ لأهل العلم وفضيلة، وعلامة لهم، وأنَّه كلَّما كان العبد أعظم علماً وتصديقاً بأخبار ما جاء به الرسول ﷺ، وأعظم معرفة بحِكَم أوامره ونواهيه، كان من أهل العلم الذين جعلهم الله حجةً على ما جاء به الرسول ﷺ، احتجَّ الله بهم على المكذِّبين المعاندين». (تيسير الكريم الرحمن للسعدي، ص ٦٧٥).

٧ ـ دَلَّ إنكارُ الكفارِ للبعث على تَوَغُّلِهم في غَمَرَاتِ الضلال، وتَرَدِّيهم في دركاته، فضلاً عن تَقَلُّبهم في عذاب الدنيا قبل أن يذوقوا عذاب الآخرة.

٨ ـ في شهادة الذين أُوتوا العلم من أهل الكتاب وغيرهم، ممَّنْ تَبَصَّرَ بعِلْمِه، واهتدى به إلى معرفة هذا الحق، حجةٌ على مَنْ لا علم لهم.

٩ ـ في الآية (٩) إخبار مستقبليٌّ عن خَسْفِ الأرض والعذاب من السماء للكفَّار.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾

التفسير:

١٠ ـ وعزَّتِنا وجلالِنا لقد آتينا داود منا فضلاً عظيماً، ضَرَبَ الله مثلاً بنبيه داود عليه السلام يدلُّ على كمال قدرته، وكريم عطائهِ لعباده الصالحين، فقد تَفَضَّل الله على داود عليه السلام بهذه الآية العجيبة، وهي ذلك التآلف والانسجام بينه وبين ما حوله من جبالٍ وطيور، فالجبالُ تتجاوب بأمر من الله تعالى منسجمةً مع هذا الصوت الجميل الخاشع، والطير تشدو. وكما لانَتْ له الجبال مع صلابتها، وألِفَتْه الطيرُ مع نفورها ووحشتها، فقد ألان الله له الحديدَ ليصنعَ به الدروع السابغات المحكمات، فكان في يده ليناً، من غير طَرْقٍ أو تسخينٍ، يَصْنَعُ منه بدقة وإحكام دروعاً حصينة متينة، بأمر الله تعالى وتعليمه، فقد أرشده سبحانه إلى أُسُسِ الجودة، وأصول الإتقان، وفنون الإبداع في صناعتها.

١١ ـ أمرناه أن اصنع دروعاً سابغةً محكمةً، واضبط حلقاتِها، حتى تكون منتظمة متينةً متناسقة ضيقة لا تنفذ منها السهام، وأن يجدُّوا في عمل الصالحات التي يَعُمُّ نَفْعُها، ويمتدُّ أثرُها في العاجل والآجل، إني مطلعٌ على أعمالكم، بصيرٌ بدقائِقِها ولطيفِها، فضلاً عن جليلها.

١٢ ـ كذلك امتنَّ الله على سليمان عليه السلام، فسَخَّر له الريح، تجري بأمره، وتحمله هو وجنوده، فتقطع المسافات البعيدة في الزمن اليسير، وأذاب له عين النحاس التي تنبع من الأرض؛ لتفيض بالنُّحاس المذاب الذي يستخدم في أغراض السلم والحرب، كما سَخَّر الله تعالى له الجنَّ، يعملون بين يديه فيراهم ويُشرف على عملهم، ويوزِّع عليهم المهامَّ، فسَخَّر له الشياطين في بناء المساكن والمحاريب، وصناعة القِصاع الكبيرة والتماثيل، وفي الغوص لاستخراج كنوز البحار. ومَنْ تَمَرَّد منهم عن أمرنا له بطاعة سليمان نُذِقْه من عذاب النار المحرقة.

١٣ ـ يُنْشِئُون له ما يشاء من أبنية مرتفعة للعبادة والسكنى، وتماثيل ينحتونها، وقِصاع كالحياض التي يُجبى فيها الماء، وآنية الطبخ ثابتة على قوائمها لعِظَمِها. اعملوا بطاعة الله يا آل داود شكراً له على ما آتاكم، وقليل من عبادي المكثر من الشكر.

١٤ ـ فلمَّا نفذ قضاؤنا عليه بالموت، وهو متكئ على عصاه يشرف على الأعمال، والجن مستغرقون في مهامهم؛ هيبة له وإجلالاً، وخضوعاً وإذعاناً حتى أكلت الأَرَضَةُ عصاه، فخَرَّ سليمانُ؛ ليعلمَ الجميع بموته، ويستيقن الإنس أن الجن لا علم لهم بالغيب، وتسقط تلك الأوهام والادعاءات؛ إذ لو كانوا يعلمونه ما لبثوا في هذا العمل الشاق الذي كَلَّفهم به سليمان عليه السلام.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ تَفَضُّل الله تعالى على أنبيائه بالنِّعم الجليلة، والمواهب العظيمة؛ تأييدٌ لهم وتكريم.

٢ ـ تنكير ﴿فَضْلًا﴾ للتفخيم، وكذلك قوله: ﴿مِنَّا﴾ زيادة في تعظيمه وتشريفه. وقَدَّم الجار والمجرور للاهتمام بالمقدَّم، والتشويق للمؤخر.

٣ ـ في قصة داود عليه السلام وتَعَلُّمِه صناعةَ الدروع دليلٌ على تَعَلُّم أهل الفضل الصنائع، وأن امتهانها لا ينقُصُ من مناصبهم. وفي الصحيح عَن الْمِقْدام رضي الله عنه عَنْ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَاماً قَطُّ خَيْراً مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللهِ دَاوُدَ عليه السلام كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ»، وإنَّما خَصَّه الله بالذِّكْر لأنَّه مع نبوَّته كان مَلِكاً، فلم يمنعه ذلك من العمل. (الجامع لأحكام القرآن

للقرطبي: ١٤/ ٢٣٤. والحديث رواه البخاري في صحيحه كتاب البيوع، باب: كسب الرجل وعمله بيده، برقم ١٩٦٦).

٤ ـ إتقان العمل من شِيَم أهل التقى والصلاح، والاجتهاد في تطوير الحرف والصناعات النافعة مطلَب شرعي، وأمر ضروري.

٥ ـ الأنبياء رُوَّاد الحضارات، وحملة مشاعل الهدى والارتقاء، ومُعَلِّمو الإنسانية، وخيرٌ ورحمةٌ لها، والوحي مصدرٌ من مصادر المعرفة الإنسانية، وَهَبَ الله سليمان ملكاً عظيماً وأيَّده بجنود عجيبة، منها الريح والطير والجن، فضلاً عن الإنس، وإذابة عين النحاس له.

٦ ـ الدعوة إلى توظيف المَلَكات والمواهب والنِّعَمِ في الأعمال الصالحة.

٧ ـ الشكر من أعمال القلوب والألسنة والجوارح، وهو اعتراف القلب بنعمة الله، واستحضارها، وثناء اللسان، وعمل الجوارح.

٨ ـ خَصَّ آل داود بالذِّكْرِ؛ لأنَّهم موضع التأسِّي والاقتداء، ومَحَطُّ الأنظار. وفي هذا دَرْسٌ لآلِ كلِّ داعيةٍ أن يكونوا أسرعَ استجابةً وأشدَّ حرصاً، وأعظم إقبالاً على طاعة الله وشكر نعمه.

٩ ـ قُدِّمَتِ الجِفانُ على القُدور مع أن القدور آلة الطبخ، والجفان آلة الأكل والطبخ قبل الأكل؛ لأنه لَـمَّا ذُكِرَت الأبنية الملَكية ناسب أن يشار إلى عظمة السِّماط الذي يُمَدُّ فيها فذُكرت الجفان أوَّلاً؛ لأنَّها تكون فيها بخلاف القُدور، فإنَّها لا تحضر هناك. (انظر: روح المعاني للألوسي ١٦/ ٢٧٢).

١٠ ـ إنَّ دابة الأرض هي إحدى الحشرات التي تأكل الخشب، وتحفر فيه؛ لتتخذ منه مأوى وطعاماً في آن واحد، ولذا تعرف باسم ناقرات الخشب (Woodborers) أو القادح، ومنها الأرضة (القرضة).

يقول العلماء في قوله تعالى: ﴿تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾: أول إشارة في تاريخ البشرية إلى حقيقة أن من الحشرات ما يعيش على أكل الأخشاب. وأنَّ تاء التأنيث في الفعل ﴿تَأْكُلُ﴾ تدل على أن الذي يبدأ النخر في الخشب هي الإناث من تلك الحشرات الناخرة. (آيات الإعجاز العلمي: الحيوان في القرآن الكريم: زغلول النجار: ص ٢١٢ ـ ٢٢٦).

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍۖ كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُواْ
لَهُۥۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ
ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلْ نُجَٰزِيٓ
إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا
ٱلسَّيْرَۖ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ
فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾﴾

التفسير:

١٥ ـ قسماً لقد كان لقوم سبأ في ديارهم ومساكنهم آيةٌ عجيبة، تدلُّ على قدرة الله تعالى، وسُنَّته الماضية، وعدله في حُكمه: جنتان عن اليمين والشمال، فيهما الأشجار الوارفة الظلال اليانعة الثمار والزروع التي تُسْقَى بالماء النَّمير من الخزانات وراء السدِّ. فهنيئاً لهم هذه الطيبات، وليشكروا ربهم عليها. بلدةٌ وافرة الخيرات، سالمةٌ من الآفاتِ، خاليةٌ من المنغِّصاتِ، طاب فيها المقامُ ورَغَدُ العيشُ، ومساكنُ طيبةٌ، ومناظرُ رائعةٌ، وسهولٌ ممتدةٌ، وربوعٌ خضراءُ، وأنهارٌ تتدفَّقُ بالخيرات، وأشجارٌ تتفتَّقُ بأطايبِ الثمراتِ، وربٌّ غفور يعفو عن الكثير، ويثيبُ على القليلِ، ويمنحُ الثوابَ الجزيلَ.

١٦ ـ فلم يشكروا ربهم بل أعرضوا عن المُنْعم جلَّ وعلا، وقابلوا النعم بالجحود والنكران، فسلَّط الله عليهم السيل الجرَّار الذي خَرَّب سَدَّهم، وأفسد زرعهم، وأتلف أشجارهم، فتبدلت بتلك الحقول والبساتين المثمرة أشجارٌ رديئة الثمر، كالطرفاء والسِّدر وغيرها من الأشجار التي لا تُغْني من جوع.

١٧ ـ ذلك العقاب بسبب كُفْرِهم وجُحودهم، فلا نُعاقِبُ إلا مَنْ كفر بالنِّعَم، وأصرَّ على ذلك، وتمادى فيه، فيتبدَّل حالُه مِنْ رَغَدِ العيش، وطيب الحياة، ووفرة الثمر إلى القَحْطِ والجدب وتَلَفِ الزروع، وقلة الثمر.

١٨ ـ وكانوا في نِعَم ظاهرة، وحياة رغيدة، وعيشة سهلة ليِّنة، وبلاد طيبة آمنة، وقرى متقاربة متواصلة بالخيرات من اليمن جنوباً إلى بلاد الشام، وجعلنا السير بين قُراهم والقرى التي باركنا فيها سيراً مقدَّراً من منزل إلى

منزل، ومن قرية إلى قرية، حتى يكون المَقِيلُ في قريةٍ، والمبيتُ في قريةٍ أخرى، ودَعَوْناهم للسير فيها آمِنِين من كل المخاطر والآفات، مهما ساروا بالليل أو النهار، ومهما طال سفرهم.

١٩ ـ تعالى القوم على هذه النِّعم، وطلبوا زوالهَا، وتمنَّوا لو كان السفر طويلاً، وبلغ الترفُ ببعضهم والدَّعَةُ أن اشتكى من بُعد الأسفار؛ جحوداً وإنكاراً لنِعَمِ الله تعالى، وظلموا أنفسهم بجحودهم وغفلتهم، وتملُّلهم، فجعلناهم عِبرةً يتحدث الناس عنهم، ويتعجَّبون من أخبارهم وبؤسهم بعد عيشهم الرغيد، وتفرُّقهم بعد اجتماع شملهم، وذُلِّهم بعد عِزِّهم، حتى صار تفريقهم مثلاً سائراً فقالوا في الأمثال، ذَهَبُوا أَيْدِي سَبا وَتَفَرَّقُوا أَيْدِي سَبا. (مجمع الأمثال للميداني: ١/ ٢٧٥). إنَّ في ذلك لمواعظ وعِبَراً لكل مَنْ أكثر الشكر، ووَطَّن نفسَه على الصبر.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ سيقت قصة سبأ لتكون عبرةً وعظةً وحجةً على كفارِ قريشٍ الذين أنكروا البعث، وكَذَّبوا بالنبيِّ ﷺ، وأعرضوا عمَّا بين أيديهم وما خلفهم من الآيات، فالجزاء الدنيوي تمهيدٌ وبرهان ودليلٌ، وعنوانٌ على الجزاء في الآخرة.

٢ ـ يقول علماء النبات: إنَّ كل أعضاء النبات تحتاج إلى عنصر الأُكسجين، والأُكسجين ينتشر بين حبيبات التربة بالقدر الكافي؛ لتنفس الجذور، فإذا زادت نسبة الماء بالتربة (أغرقت التربة)، فالماء الزائد يَحُلُّ مَحَلَّ الأكسجين فلا يجد الجذر ما يتنفس به من الأكسجين فيموت مختنقاً كما يغرق الإنسان والحيوان، فإذا مات الجذر توقفت عملية امتصاص الماء والأملاح من التربة ومات النبات عطشاً رغم توافر الماء تحت قدميه، وترى النباتات الغارقة بالماء ذابلة كأنَّها تعرضت للفحة الحرارة في قلب الصيف. (الإشارات العلمية في القرآن الكريم: علم النبات في القرآن الكريم للدكتور السيد عبد الستار المليجي ص ٢٨٥ ـ ٢٨٧).

٣ ـ عاقبة الجحود والنكران، والغفلة والنسيان: الشقاء والحرمان.

٤ ـ التعبير بـ ﴿سِيرُواْ فِيهَا﴾ مُؤْذِنٌ بشدة القرب، حتى كأنهم لم يخرجوا من القرى نفسها.

(روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للألوسي: ١٦/ ٢٨٨).

٥ ـ قَدَّم الليالي لأنَّها مَظِنَّةُ الخوف؛ وقد قيل: الليل أخفى للويل، أو لأنَّها سابقة على الأيام، أو يكون التقدير: سِيرُوا فيها آمنين، وإن تطاولت مدةُ سفركم، وامتدت ليالي وأياماً كثيرة.

٦ ـ قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ بصيغة المبالغة مع اقتران الصبر بالشكر؛ لأنَّه حين تمتزج مرارة الصبر بحلاوة الشكر مع حرارة الإيمان تتفتق عن بصيرةٍ نافذةٍ، وفكرٍ ثاقبٍ، وعقلٍ مستنيرٍ يستنبط الدروس، ويستوعِبُ العِبَر.

٧ ـ تعبيد الطرق وتمهيدُها واجب شرعي على أولياء أمور المسلمين وأثريائهم. وتلك نعمة عظيمة تستوجب حَمْدَ اللهِ تعالى، وشُكْرَ مَنْ يقوم بها، والدعاءَ له.

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم
مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ
﴿٢١﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى
ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ
أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾

التفسير:

٢٠ ـ لما أعرض قوم سبأ عن شُكر النِّعم، ونَسُوا المُنْعِمَ، وأخلدوا إلى الترف، وتنافسوا في المتع والملذات، وقعوا في مصايد الشيطان، فَصَدَّق عليهم ظنَّه إلا فريقاً ممَّنْ عصمهم الله بإيمانهم من وساوسه، ونَجَّاهم من إغوائه.

٢١ ـ وما كان له أن يصل إلى بني آدم، لولا أنَّ الله تعالى قَدَّر ذلك فتنة وابتلاء للناس، فلم يقهرهم إبليس على الكفر، وإنَّما كان منه الدعاء والتزيين، وإنما اتبعوه بأهوائهم الجامحة، بغير حُجَّةٍ ودليل. وحكمة الله من

ذلك امتحان العباد؛ ليعلمَ الصادق مِن الكاذبِ، والله يحفظ العباد، ويُحصي عليهم أعمالهم، فيجازيهم بها.

٢٢ ـ قل ـ يا محمد ـ للمشركين احتجاجاً عليهم، وتبكيتاً لهم، وتحدِّياً: ادعُوا آلهتكم التي زعمتم، فهم لا يملكون في هذا الكون مثقال ذرة. والله سبحانه لا يستعين بهم في شيء، ولا بغيرهم؛ فما هو في حاجة إلى مُعين.

٢٣ ـ ولا تُقْبَلُ الشفاعة، ولا تُجدي عنده، إلا لِـمَنْ أذن له وارتضاه، فأما المشركون به فليسوا أهلاً لذلك، فإذا أَذِنَ لهم في الشفاعة فزعوا؛ لما يقترن بتلك الحالة من الأمر الهائل، والخوف الشديد من أن يحدثَ شيء من أقدار الله، فإذا سُرِّي عنهم قالوا للملائكة فوقهم: بماذا أمر ربكم؟ فيجيبونهم، قال: القول الحق، وهو قَبول شفاعتكم للمستحقين لها دونَ غيرهم، استشعارٌ وتعبيرٌ عن هيبته وإجلاله، فله سبحانه أن يحكم في عباده بما يشاء، ويفعل ما يريدُ وهو العليُّ الكبير المنفرد بالعلو والكبرياء.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ كلُّ مَنْ ضلَّ وغوى فقد صَدَّق فيه ظنُّ إبليس، حين أقسم بعزته تعالى أن يغويهم، إلا عباد الله المخلصين، كما أخبر رَبُّ العزة ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦].

٢ ـ فتنة إبليس ابتلاءٌ وامتحانٌ للناس؛ ليتبيَّن المؤمنُ الصادقُ من الكافر المرتاب، فيُثَبِّتُ الله المؤمنَ، ويعصمُه، ويقعُ المرتابُ في حبائل الشيطان، وبقَدْرِ إيمان العبد بالله واستعانته به، ويقينه باليوم الآخر بقَدْرِ ثباته أمام هذه الفتنة ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾ من هنا ندرك مدى أهمية الإيمان باليوم الآخر، وأثره في وقاية الإنسان من مكايد الشيطان، وعصمته من فتنته.

٣ ـ مشهد الملائكة وهم في غاية الهيبة والإجلال لربِّهم، خاشعين مُذْعِنين لأمره تعالى مشهدٌ متكررٌ في الدنيا، كما جاء في الصحيح عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِذَا قَضَى اللهُ الْأَمْرَ فِي السَّمَاءِ ضَرَبَتِ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَاناً لِقَوْلِه، كَالسِّلْسِلَةِ عَلَى صَفْوَانٍ، فَإِذَا ﴿فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُواْ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾...» الحديث.

(صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ [الحجر: ١٨]، برقم ٤٧٠١).

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾

التفسير:

٢٤ ـ قل لهؤلاء المشركين: مَنْ يرزقكم من خيرات وبركات السموات والأرض. إنه الله وحده، أما الأصنام فإنها لا تملك في هذا الكون مثقال ذرةٍ، وإنا أو إيَّاكم لَعلى هدى، أو في ضلال واضح، فالهدى لا يتعدَّد.

٢٥ ـ قل للمشركين: لا تُسألون عن أعمالنا وجرائمنا، ولا نُسأل عن أعمالكم، فكل إنسان محاسب عن نفسه، مسؤول عن عمله، قل لهم: يجمع ربنا بيننا وبينكم يوم القيامة، ثم يحكم بيننا بالقول الفَصْلِ، والحكم العادل، وهو سبحانه يَفْصِلُ بين عباده بالحق، وهو العليم بصالحهم وطالحهم، لا يخفى عليه منهم شيء.

٢٧ ـ قل: أَطْلِعوني وأَبْصِروني آلهتكم المزعومة التي ألحقتموها بالله تعالى؛ لأنظرَ أيَّ صفةٍ فيها جعلتُها على زعمكم نِداً لله تعالى. بل هو الله تعالى الغالب الذي لا يمتنع عليه شيء، صاحب العزة الحكيم في أقداره وأحكامه.

٢٨ ـ وما أرسلناك إلا للناس قاطبةً، مبشِّراً مَنْ أطاع بجزيل الثواب، ومنذراً مَنْ عصى بأليم العقاب، ولكنَّ أكثر الناس لا يدركون حقيقة الرسالة ومهمة الرسول.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ في الآية (٢٤) إخبار مستقبليٌّ عن رزق الله تعالى لجميع عباده.

٢ ـ قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُۖ وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ درسٌ في آداب الجدل والمناظرة، أن يقول الرسول ﷺ للمشركين: إن أحدنا لا بُدَّ أن يكون على هدى، والآخر لا بُدَّ أن يكون على ضلال، ثمَّ يَدَعُ تحديد المهتدي منهما والضال؛ ليثير دوافع التدبر ونوازع التفكر في رِفْقٍ ولُطْفٍ، بعيداً عن أجواء التعصب والهوى والاستعلاء، وفيه أبلغ ما يدل على الإنصاف والموضوعية، والتجرُّد للحقِّ، وابتغائه في رِفْقٍ ولُطْفٍ. وهو نموذج من أدب الجدل ينبغي للدعاة تَدَبُّره، ويعتمد على الإنصاف والاعتدال والأدب في الجدال.

٣ ـ لمَّا كان صاحب الهدى مستعلياً به، مستشرفاً به، كان التعبير بـ (على) في مقابل التعبير بـ (في) للضالِّ المنغمس في ضلاله، الغارق في أوهامه، المحصور فيها.

٤ ـ ﴿قُل لَّا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّآ أَجۡرَمۡنَا وَلَا نُسۡـَٔلُ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ دليلٌ على الرِّفْقِ بالمخالف، والتلطُّفِ معه في الخطاب، وترغيبه، وكَسْبِ وُدِّه وعاطفته؛ حتى يُقْبِلَ على الحقِّ، ويُذْعِنَ له، فلا يكابر ولا ينفر من أهل الحق.

٥ ـ ذُكِرَ الإجرام المنسوب إلى النفس بصيغة الماضي الدالة على التحقق، وعن العمل المنسوب إلى الخصم بصيغة المضارع التي لا تدل على ذلك. وهذا أبلغ في الإنصاف والتأدُّب في الحوار، وأرجى للقبول.

٦ ـ عموم رسالة الإسلام، وسمو مقاصدها، مع جهل الكثيرين بها.

٧ ـ في الآية (٢٨) إخبار مستقبلي بأنَّ الرسولَ ﷺ أُرْسِلَ للناس أجمعين في الماضي والحاضر والمستقبل، أُرْسِلَ إليهم مُبَشِّراً بثواب الله، ومنذراً عقابه.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ
عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ
يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ
يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟
لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ
ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ
أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ
إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾

التفسير:

٢٩ ـ يخبر الله تعالى عن سوء أدب الكفار وفَرْطِ جَهْلِهم إذ يقولون للرسول ﷺ والمؤمنين: متى وقت مجيء يوم القيامة، إن كنتم صادقين في دعواكم هذه؟ وهذا الاستفهام سؤال إنكار واستبعاد ومراء.

٣٠ ـ قل: لكم أيها الكفار ميعادٌ لا يتخلَّف، قَدَّره الله وحدَّده، فإذا حَلَّ بكم فلا مفرَّ منه، ولا سبيل إلى تأخيره وتأجيله، كما لا يمكن تقديمه بأي حال.

٣١ ـ وأعلن الكفار إصرارهم على الكفر بالقرآن وما فيه من أنباء، فاندفعوا إلى تكذيب لا مُسَوِّغ له إلا سحائبُ الجحودِ الغائمة، وحُجُبُ الإنكارِ الكثيفة التي لا تنجلي عنهم، ولا تنقشع عن عقولهم، ولو ترى مصيرهم وتخاصمهم لرأيت أمراً عظيماً هائلاً، حين يقف الظالمون بين يدي رب العالمين يتراجعون، ويتراشقون التُّهَمَ فيما بينهم، ويتطارحون اللَّوم والعتاب، يقول الذين استضعفوا في الدنيا للذين استعلوا فيها، وبطروا الحق، وغمطوا الناس: لولا غَوايتكم لنا وقَهْرُكم لكنا مؤمنين، فقد كُنَّا لكم تَبَعاً وعوناً.

٣٢ ـ وهنا يستنكر المستكبرون بقولهم: أنحن صَرَفْناكم عن اتباع الهدى

بعد إذ جاءكم واضحاً جلياً، بل اخترتم أنتم طريق الإجرام بإرادتكم، من أجل مصالحكم، فلا تلومونا ولوموا أنفسكم، فقد جاءكم الهدى، فما الذي صرفكم عنه أيها المجرمون؟ هل أرْغَمْناكم على اتِّباعنا؟ أو إنه الإجرامُ يَسْري في دمائكم، والتبعيةُ تَحْمِلُكم على الانصياع لنا، ومُمالأتنا.

٣٣ ـ أجابوهم بكل ما لديهم من حسرةٍ وحُرْقَةٍ: أنَسِيتم عَمَلَكم الدائبَ، وكيدكم المتواصل، وتآمركم على الحق وأهله، وصَدَّكم الدائم، وأوامركم الصريحة، ودعواتكم المتواصلة كي نكون وَفْقَ ما أنتم عليه؟ ولما رأوا عذاب النار كتموا الحسرة، وتمنَّوا لو سلكوا طريق الحق. وجعلنا الأغلال تُطَوِّقُ أعناق الذين آثروا الكفر وماتوا عليه، إمعاناً في إذلالهم، ونَكالاً بهم، وجزاءً عادلاً لظلمهم.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ ضرورة تذكير الكافر ومواجهته بمصيره الذي ينتظره إن بقي على كفره.

٢ ـ يشهدُ يومُ القيامة مواجهاتٍ عنيفةً وحواراتٍ صريحةً بين الأتباعِ والمتبوعين، بين المستكبرين والمستضعفين، يتبادلون فيها اللوم والعتاب، ويتراشقون التُّهَم، ويسعى كلُّ فريق إلى النجاةِ ولو على حسابِ الآخر، وينكشف لكلِّ فريق حقيقةُ الآخر، وتُفْضَحُ النيَّات، ويظهر المستور، وتتهاوى العلاقات الهشَّة، والمودة الزائفة.

٣ ـ إسناد المكر لِلَّيل والنهار يَدُلُّ على استغراقه لكل الأوقات، ودأبهم وهمتهم في نشر الكفر. والتعبير بالمضارع ﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَآ﴾؛ لاستحضار صورتهم وهيئتهم حالَ يُلْقُون عليهم الأوامر، كما يفيد الاستمرار.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٣٤ وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ٣٥ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٦ وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ٣٧ وَٱلَّذِينَ يَسۡعَوۡنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ٣٨ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥۚ وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ٣٩﴾

التفسير:

٣٤ ـ ٣٧ ـ وما أرسلنا في قريةٍ من رسول ينذر قومه إلا بادر المترفون بالتكذيب، وأعلنوا كفرهم وإعراضهم، واستبعدوا العذاب متعلِّلين بكثرة المال والولد، واهمين أنَّ ذلك سببٌ للنجاة! وهذا منطقٌ عجيبٌ، فأجبهم يا محمد: بأنَّ بَسْطَ الرزق وتضييقَه من شأن الله تعالى، ولكنَّ كثيراً منهم يجهلون هذه الحقائق، فليس بسطة الرزق وتضييقه دليلاً على ما زعمتم، وليست الأموال والأولاد هي التي تُقَرِّب إلى الله وتُدْني منه، إلا لِـمَنْ آمن وعمل صالحاً، وجعل المال والولد وسيلةً لرضا الله تعالى، فأولئك لهم جزاء مضاعف بسبب إيمانهم وصلاحهم وقيامهم بحقوق المال والولد. وهم في درجات الرضوان في أعالي قصور الجنة، مُنَعَّمون مُعافَوْن من كل آفةٍ.

٣٨ ـ أمَّا الذين يسعون في آيات الله، للتكذيب بها، وتعجيز مَنْ آمن بها ودعا إليها، واهمين أنهم يفوتوننا بأنفسهم؛ فهؤلاء البعداء المحرومون محبوسون، مُعَذَّبون في جهنم.

٣٩ ـ قل لهم يا محمد: إنَّ ربي يفتح أبواب الرزق لِـمَنْ يشاء من عباده، ويمسك عمَّنْ يشاء، لِحكَم عظيمة، وما أنفقتم من نفقة واجبة أو مستحبة في أيِّ باب من أبواب الخير، فإن الله تعالى يُخْلِفُ على المنفق، وهو خير مَنْ يُوَسِّعُ على عباده ويرزقُهم، فاطلبوا الرزق منه، والتَمِسُوا أسبابه، وأنفقوا يُنْفَقْ عليكم.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ المال ليس له قيمة في ذاته، وليس عصمةً ووقاية لصاحبه، وليس دليلاً على قُرْبِه من الخالق الرازق ﷻ، وليس برهاناً على نجاته في الآخرة.

٢ ـ الإتيان باسم الفاعل ﴿مُتْرَفُوهَآ﴾ لبيان انغماسهم بالترف، حتى صار وصفاً ملازماً لهم.

٣ ـ الترف من عوامل الصدود والإعراض عن الحق، ومن معاول هدم الأُمم وإبادة الشعوب، ومن شأن المترفين الركونُ إلى الدنيا ومَلَذَّاتها، والصدود عن الحق، والاغترار بالأماني الكاذبة، والتفاخر بالمال والولد.

٤ ـ في الآية (٣٦) إخبار مستقبليٌّ أنَّ الله ﷻ وحده يوسِّع الرزق في الدنيا لِـمَنْ يشاء من عباده، ويضيِّق على مَنْ يشاء، في الماضي والحاضر والمستقبل.

٥ ـ الحث على البذل والإنفاق، فالله تعالى يَخْلُف على المنفق، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فيه إِلَّا مَلَكَانِ يَنْزِلَانِ فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقاً خَلَفاً، وَيَقُولُ الآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكاً تَلَفاً». (صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب قول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾ [الليل: ٥]).

٦ ـ خَصَّ المترفين بالذِّكْرِ؛ لأنَّهم غالباً أول المكذِّبين للرسل عليهم السلام؛ لما انشغلوا به من زخارف الدنيا وبهارجها.

٧ ـ في الآية (٣٩) إخبار مستقبليٌّ أنَّ الله ﷻ وحده يُعَوِّضُ المنفق ما أنفقه امتثالاً لأمره وطلباً لمرضاته، وذلك في الدنيا بالبدل، وفي الآخرة بالثواب.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ
وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ
لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ
عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ
إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ
ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ
وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾﴾

التفسير:

٤٠ ـ واذكر يوم يَحْشُرُ الله تعالى المشركين ومعبوداتهم، ثم يقول للملائكة: أهؤلاء كانوا يعبدونكم؟ وهذا الاستفهام يتضمن توبيخاً وإنكاراً على المشركين.

٤١ ـ فأجابوا مُعَظِّمين لله: تنزيهاً وتقديساً لك ربَّنا، نبرأ من صنيع المشركين، إذ كيف يعبدوننا وأنت مالكُنا ومُدَبِّر أمورنا! ونحن ما دعوناهم لعبادتنا، بل فعلوا ذلك استجابةً وطاعةً لشياطين الجن الذين زَيَّنوا لهم ذلك، فصَدَّق أكثرُهم بهم، وسَلَّموا لهم.

٤٢ ـ فإذا لم تَبْقَ لكم حجةٌ ولا عذرٌ فقد خاب رجاؤُكم، وانقطع أملُكم، فلا يملك بعضُكم لبعض نفعاً ولا ضراً، كما كان استمتاع الإنس والجن بعضهم ببعض، ونقول توبيخاً: ذوقوا عذاب النار التي طالما كذَّبتم بها في الدنيا، وبَقِيتم على تكذيبكم.

٤٣ ـ وإذا تتلى عليهم آياتنا الشاهدة لنا بالوحدانية ولنبينا بالرسالة، مع وضوحها وجلائها، قالوا مُكَذِّبين مُعْرِضين: ما هذا إلا رجل يسعى إلى صَرْفِكم عن عبادة الآباء، وقالوا: ما هذا إلا كذبٌ، وقال الذين اختاروا الكفر، وبَقُوا عليه: ما هذا إلا سحر واضحٌ.

٤٤ ـ وما آتيناهم قبل هذا الكتاب الذي نزل فيهم من كتب يتدارسونها،

وما أرسلنا إليهم قبلك يا محمد من نذير يذكرهم، فكان حَرِياً بهم أن يُقْبِلُوا على هذا الكتاب، ويتمسَّكوا به، ويستجيبوا لهذا النذير الذي جاءهم بخيري الدنيا والآخرة، بدلاً من التكذيب والافتراء الذي لا أصل له.

٤٥ ـ وكذَّب الذين كانوا من قبلهم من الأُمم الهالكة، والقرون الغابرة، فما بلغ كفَّارُ قريش من الرفاهية والترف معشار ما بلغت تلك الأُمم التي آتاها الله نِعَماً وفيرة، ومكَّن لهم ما لم يُمَكِّنْ لغيرهم، فما أغنت عنهم النِّعَمُ حين كذَّبوا رسلَ الله. فانظر كيف كان عذابي لهم وإنكاري عليهم، وتبديلي نِعَمي عليهم بالنِّقم؟ فليَحْذَرْ هؤلاء الكفرة من مصير أسلافهم.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ يشهد يوم القيامة مواجهاتٍ ومساجلاتٍ مباشرة بين الأتباع والمتبوعين، وبين المشركين ومَنْ أشركوهم مع الله.

٢ ـ لا تبقى للمشركين حُجَّةٌ يتعلَّلون بها، بل يستيقنون من ضلالهم، ويعاينون العذاب الذي طالما استبعدوه، وكذَّبوا به.

٣ ـ الإتيان بالاسم الظاهر في موضع الإضمار ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ﴾؛ لبيان سبب هذه المقولات الكاذبة وهي بقاؤهم على الكفر، وإصرارهم عليه.

٤ ـ بيان أثر التقليد الأعمى لِما كان عليه الآباءُ والأجدادُ، في الصدودِ عن دعوة الحقِّ.

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن
جِنَّةٍۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْۖ إِنْ
أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَآءَ
ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِيۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا
يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُواْ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ
﴿٥١﴾ وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُۖ
وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن
قَبْلُۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾﴾

التفسير:

٤٦ ـ قل لهم يا محمد: إنما أُقَدِّم لكم هذه الموعظة البليغة، وأدعوكم إلى هذه النظرة الصائبة الموفَّقة: أن تقوموا لله تعالى بإخلاص وتَجَرُّد، يحاور كلُّ واحد صاحبه الذي يثق في صدقه ونصحه، وينظران معاً نَظَرَ الصدق والإنصاف، أو يراجعُ كلُّ فردٍ نفسَه، فيتفكر ويتأمل بعدلٍ، ويعزم عزماً خالصاً على ابتغاء الحق، فإنَّ مَنْ يَنْشُد الحقَّ بعزمٍ وصدقٍ يُوَفَّقْ إليه، ثم تتفكروا فيما بينكم في أمر صاحبكم ـ أي الرسول محمد ﷺ ـ، هل صحيحٌ ما تَدَّعُونَه به من جنون، فإن تجرَّدْتُم للحق أدركتم أنه ليس كما زعمتم، وما هو إلا نذير لكم من العذاب الأليم الذي يستحقه المكذِّبون.

٤٧ ـ قل لهم يا محمد: لا أريد منكم أجراً ولا عطاءً في مقابل دعوتي إليكم، فخذوا أنتم الأجر الذي طلبته منكم! لا أرتقب إلا ثواب الله، ولا أبتغي إلا رضاه، وهو عالم بجميع الأمور، شاهدٌ عليها، مُطَّلع عليَّ، يعلم نيتي ومقصودي.

٤٨ ـ قل: إنَّ ربي يقذف بالحق، فتتلقَّاه القلوب السليمة ويستقرُّ فيها، ويُلْقِيه إلى أنبيائه، ويَهْدي إليه كل مَنْ ينشده ويتحرَّاه، وهو تعالى الذي أحاط علماً بكل أمور الغيب، فلا تخفى عليه خافية.

٤٩ ـ قل: جاء الحق، ولاحت أعلامه، وتَجَلَّتْ حُجَجُه، وقامت دلائله، أما الباطل فقد تمزَّقَتْ حُجُبُه، وتلاشَتْ شبهاتُه، وتَبَدَّدَتْ ظلماتُه، فلم تَعُدْ له صولة ولا جولة، فهو زاهقٌ، لا يُقيم حقيقة ولا يؤكدها، بل يذهب بلا أثر له، فلا يُلتفت إليه، ولا يُؤْبَهُ به.

٥٠ ـ قل لهم يا محمد: إن ضَلَلْتُ فإثم الضلال على نفسي لا يتحمَّلُه غيري، وإن اهتديت فما كنت لأهتدي إلا بهداية الله لي عن طريق الوحي. إنه سميع لكل صوت، ومجيب لكل مَنْ دعاه، وقريب من عباده بعلمه وقدرته ورعايته.

٥١ ـ ولو ترى هذا الموقف المهيب حين يروعهم الفزع، ويغشاهم الهول، ويستبدُّ بهم الرعبُ، ويُحاطُ بهم من كل جهة، وفي كلِّ موقفٍ عند الموت، وعند دخول القبر، وسؤال المَلَكَين، ويوم الفزع الأكبر، أهوالٌ عظامٌ تتربَّص بهم، فلا مفرَّ منها ولا مهرب، وأخذوا بغتةً، ونُزِعُوا انتزاعاً من الموقف إلى جهنم.

٥٢ ـ وقالوا: صَدَّقْنا بهذا النبيِّ وبما وعد به من البعث. وأنَّى لهم ذلك وقد انصرم الزمان، وفات الأوان، وانطوت الصحائف، وانقضت الدنيا فلا مردَّ إليها، فلا يُسْمَعُ لهم دعاء، ولا يُرْحَمُ لهم بكاء، كيف لهم أن يتعاطوا الإيمان من بُعْدٍ! يعني في الآخرة، وقد تركوه في الدنيا، وأنَّى لهم الرجعة إلى الدنيا؛ ليؤمنوا!

٥٣ ـ وأنَّى لهم أن يُقبل إيمانهم، وقد كفروا به من قبل، وألْقَوا الشُّبَه والأباطيل، ورَمَوه بالظنون والأوهام في كِبْرٍ واستعلاء ومجاهرة.

٥٤ ـ وحِيل بينهم وبين ما يشتهونه من الرجوع إلى الدنيا وترفِها، كما حِيل بينهم وبين نعيم الجنة وملذاتها، وحِيل بينهم وبين الإيمان. إنهم كانوا في الدنيا في شك وريبة، فلهذا لم يُتَقَبَّلْ منهم الإيمان عند معاينة العذاب.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ تَضَمَّنت الآية الكريمةُ ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾ الأصولَ الثلاثةَ: التوحيد، والرسالة، واليوم الآخر.

٢ ـ تفيد (ثم) الترتيب والتراخي الزمني، أي: تتفكروا بعد أن تعقدوا العزم، وتخلصوا النية، وتتجردوا للحقيقة بقيامكم لله تعالى.

٣ ـ وصف الرسول ﷺ بـ (صاحبكم) للإيماء إلى أنَّ حاله ﷺ مشهورٌ بينهم، لأنَّه نشأ بين أَظْهُرِهم معروفاً بما ذكرنا. وفي هذا تعريضٌ بتجاهُلِهم، وتنكيرهم له.

٤ ـ الداعية يرتقب الأجر من الله تعالى على دعوته، ويراقب الله تعالى في أداء هذه الرسالة الخالدة.

٥ ـ الهداية تأتي في لحظة واحدة، وقذائف الحق لا تسري إلا للقلوب التي تَتَلَهَّفُ عليها، وتتشوق إليها، والتعبير بـ ﴿يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ﴾ يفيد قوة الحق، وسرعة وُصولِه للقلوب.

٦ ـ الباطلُ إن تقادم به الزمان لا يزيد إلا زهوقاً، والحقُّ على مَرِّ الأيام لا يزداد إلا قوةً وظهوراً.

٧ ـ تَذَكُّرُ أحوال الآخرة، ومواقفها العظيمة، ومشاهدها المهيبة، مما يُسَلِّي الدعاة، ويُخَفِّف عنهم، ويُهَوِّن عليهم ما يواجهونه من مصاعب وعقبات.

٨ ـ الشك والارتياب في حقائق الدين يورث الحرمان من خير الدنيا والآخرة.